د . قسطنطين زريق

تعليق

على بحث « التخلف الفكري وأبعاده الحضارية » للدكتور فؤاد زكريا

ان البحث الذي وضعه الدكتور فؤاد زكريا في موضوع « التخلف الفكري وابعاده الحضارية » جدير بكل عناية وتدبر لانه يتناول مشكلة من أهم مشكلات الواقع العربي المعاصر ، ويعالجها بتجرد ووعي واطلاع ونفاذ . ولما كان قد طلب مني أن أعلق على هذا البحث ، فاني اورد الملاحظات التالية راجيا أن تأتي تتمة لجهده ، وأن تسهم في استخلاص جوهر هذه المشكلة ورسم أبعادها ، وفي توضيح بعض جوانبها ، وفي اثارة النقاش وتركيز الحوار حولها ، تحقيقا للغرض الذي استهدفته الندوة الكريمة .

١ ـ يخيل الي ان الدكتور زكريا نظر الى موضوع « التخلف الفكري وابعاده الحضارية » من زاوية واحدة هي نظرتنا الى تراثنا . ففي رأيه ان هذه نظرة خاطئة في جوهرها لكونها « لا تاريخية » (ص ٢ ، س ٦) ، وهي التي أدت الى تخلفنا الفكري الحاضر . هذه النظرة الخاطئة ، واثرها الفريد في واقعنا الفكري ، هما محور البحث ومنطلق المواقف التي يتخذها الباحث . ففي الصفحة الاولى مثلا (س ٨ من أدنى) يقول : « ومن ثم فان تحليل عوامل التخلف الفكري العربي ينبغي أن يرتكز اساسا على بحث تلك الصلة الفريدة بين الماضي والحاضر في العقل العربي ... » . وفي الصفحة التالية (س ٨ من أدنى) : « وسوف يكون جهدي خلال هذا البحث منصبا على اثبات ان الطريقة التي طرحت بها هذه المشكلة ، سواء من جانب انصار التراث ام خصومه ، لم تكن الطريقة الصحيحة ، وان هذه النظرة المخطئة الى التراث ، والى ثقافتنا الماضية في صلتها بالحاضر من اهم أسباب التخلف الفكري ، وعدم الاستقرار الحضاري في عالمنا العربي » . وفي ص ١٩ (س ١١) : « ان المقارنة بين موقف الاوروبيين من تراثهم ، بل من تراثنا نحن ايضا وموقف الثقافة العربية من هذا التراث ، تكشف لنا عن مصدر أساسي من مصادر تخلفنا الفكري » . وفي ص ٢٢ (س ٩ من أدنى) : « فالمشكلة الحقيقية التي جعلت من نظرتنا الى التراث عاملا رئيسيا في تخلفنا الفكري ... » .

فهذه النظرة هي اذن : « عامل رئيسي » في تخلفنا الفكري ، أو « مصدر أساسي » من مصادره ، أو سبب « من أهم أسبابه » ، وينبغي ان تكون أساسيا لتحليل عوامله .

٢ ـ على ان الدكتور زكريا يقول ، من جهة ثانية (ص ٩ ، س ٥ من أدنى) : ان هذه النظرة « اللاتاريخية » الخاطئة هي « من أوضح مظاهر التخلف الفكري في بلادنا » . وهنا لا بد للمرء من أن يتساءل : هل هذه النظرة « اللاتاريخية » الخاطئة ، التي أحسن الدكتور زكريا في ابرازها وتفصيلها ، عامل او سبب أو مصدر (رئيسي أو هام) لتخلفنا الفكري ، أم هي مظهر من أوضح مظاهره ؟ ونحن نعلم جيدا ان كثيرا من الاحداث التاريخية والاوضاع الانسانية ـ ان لم نقل جميعها ـ هي بالوقت نفسه أسباب ومظاهر ونتائج . فتخلفنا التربوي مثلا هو علة من علل ضعفنا الاقتصادي ، ولكن هذا بدوره هو ايضا علة لذلك . فالاسباب والمظاهر والنتائج تكون في اغلب الاحوال متشابكة متفاعلة ، ومن الصعب جدا فصل بعضها عن بعض ، ومن العسير عند تحليلنا لاي وضع من الاوضاع ان نميز بين « سببيته » من ناحية و « ظاهريته » من ناحية اخرى . واني أرى ان الدكتور زكريا قد اقتصر أو كاد على الوجه « السببي » لنظرتنا الخاطئة الى التراث ، وجعلها مدار بحثه في تعليل تخلفنا الفكري ، ولم يشر الى وجهها « الظاهري » او « المظهري » الا اشارة عارضة . أما أنا فاوافقه على ان هذه النظرة الخاطئة هي سبب من أسباب تخلفنا الفكري ، ولكني لا أرى لها ذلك الدور الرئيسي الذي يميزها به ، واعتبرها مظهرا ونتيجة اكثر منها عاملا وسببا . وبكلمة اخرى : اننا لسنا ، في الدرجة الاولى ، متخلفين فكريا لاننا ننظر الى تراثنا نظرة خاطئة ، وانما نحن ننظر هذه النظرة بسبب تخلفنا الفكري .

٣ ـ ومن هنا كنت أرجو أن تكون نظرة الدكتور زكريا الى الموضوع اوسع واشمل ، أي أن تتناول مختلف عوامل تخلفنا الفكري ومظاهره ، لا ان يقتصر على العامل الذي يبرزه . وهو نفسه ينعت هذا العامل بانه رئيسي أو أساسي او هام ، ولكنه ، اذ يصب اهتمامه عليه ، يكاد يوحي بانه العامل الرئيسي او الاساسي او الاهم ، ان لم نقل العامل الوحيد . أليس ثمة عوامل اخرى ، رئيسية او غير رئيسية ، وما هي ؟ ثم ما هي مظاهر هذا التخلف الفكري ونتائجه ؟ اني أعترف ان الموضوع واسع غير محدد ، وقد يضل المرء في شعابه المتشابكة . ولا ضير على الباحث ان يقصر بحثه على جانب من جوانبه كالاسباب دون المظاهر أو المظاهر دون الاسباب ، او حتى على سبب معين او مظهر محدود ، ولكن لا بد له في هذه الحال من ان يضع موضوعه ضمن نطاقه الشامل . فملاحظتي العامة على بحث الدكتور زكريا هي اذن ملاحظة مزدوجة : فمن جهة ان تعليله لتخلفنا الفكري هو ، بالفعل ، تعليل احدى الظواهر ، في حين اني أجد الاحداث التاريخية أوسع واشد تعقدا من ان تكون ناشئة عن عامل واحد مهما يكن شانه ، ومن جهة ثانية ان ما يراه عاملا اوليا وما كاد يجعله عاملا وحيدا لتخلفنا الفكري (اي نظرتنا الخاطئة الى التراث) اراه بمنظوري مظهرا ونتيجة بالدرجة الاولى وسببا بالدرجة الثانية او الثالثة .

٤ ـ ومن هنا فاني أعتقد انه يجب ان نخرج من الوضع الذاتي للعقل العربي المعاصر في نظرته الى الماضي الى السياق الموضوعي لذلك الماضي . والحقيقة الكبرى التي تواجهنا في ذلك السياق هو ما أشار اليه الدكتور زكريا عند كلامه عن « الانقطاع الحضاري » (ص ١٣) . فالحضارة العربية ، بعد ان نمت وزهت واثمرت عدة قرون ، توقفت عن النمو والاثمار ، وهذا التوقف ، كما هي الحال في كل حضارة من الحضارات ، هو بدء الانحلال والتخلف . وقد نختلف ـ حسب مفاهيمنا لمباعث الحضارة ومقوماتها ولتطوير مجرى التاريخ ـ في تعيين بدء هذا التوقف . ولكن لا مجال للاختلاف في حقيقته وواقعه . فلا بد اذن من استكشاف اسبابه وتحليل عوامله لان هذه الاسباب والعوامل هي التي ادت في نهاية الامر الى تخلفنا الفكري الحاضر . وليسمح لي الدكتور زكريا ان اخالفه عندما يقول (ص ١٣ ، بدء الفقرة الثالثة) : « هذا الانقطاع الثقافي اذن امر واقع ، وليس هنا مجال تحليله ، ولكن يكفينا ان نقرر حدوثه فحسب » . ذلك اني اعتبر ان النظر في هذا الانقطاع ومحاولة تحليل عوامله يجب ان يكون مرتكز هذا البحث ومنطلق المعالجة ، لان الانقطاع الحضاري ، او التوقف الحضاري ، هو الذي ادى الى تخلفنا الفكري الحاضر . فما هي اسبابه وعوامله ؟ لماذا توقفت الحضارة العربية

عن النمو والانتاج والعطاء ، فتخلفت وورثنا نحن منها هذا التخلف ؟ وهنا لا بد من اشارة عارضة ، ولكنها هامة . فقد بدأ الدكتور زكريا كلامه عن هذه الظاهرة او السمة بتسميتها « الانقطاع الحضاري » ، ثم عاد فجعلها « الانقطاع الثقافي » (ص ١٣ ، بدء الفقرتين الاولى والثالثة) . وحبذا لو التزم التسمية الاولى ، لان الحضارة اوسع من الثقافة واشمل ، بل انها تؤلف كيانا عضويا موحدا يضم الى الاوضاع الثقافية الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وسواها . والثقافة ، مهما يعظم تقديرنا لها ، تبقى عنصرا من عناصر الحضارة او وجها من وجوهها او جزءا من مضمونها .

نعود ، بعد هذه الملاحظة العارضة ، الى تساؤلنا : لماذا انقطعت او توقفت الحضارة العربية : أكان ذلك لعجز العرب عن التغلب على عصبياتهم القبلية والعائلية والفردية والانصهار في ولاء أو رابطة اعظم واوسع ، أم للعنعنات والمنازعات الجنسية بينهم وبين سواهم من الشعوب التي انخرطت تحت راية الاسلام ؟ أم لان بعض هذه الشعوب لم تكن لها سابقة في الحضارة ، فلم تسهم في الانجاز الحضاري الاسلامي ، بل العكس عطلته وشلت حيويته عندما تسلمت زمام الحكم والسيطرة ، أم لان العرب بعد فتوحاتهم الباهرة اخلوا يفقدون روح المبادرة والاقدام وينصرفون الى التلهي والتنعم ، أم لان الانجاز الحضاري العربي ذاته ـ على عظمته ـ كانت تعتريه نواقص جوهرية هي التي ادت آخر الامر الى توقفه وانقطاعه ، أم لان هذا الانقطاع هو سنة التاريخ وسبيل كل حضارة من الحضارات ، فكل حضارة تولد وتنمو وتزدهر ثم لا بد لها من ان تفسد وتنحل ، أم لاجتماع بعض العوامل او كلها ، أم لعوامل اخرى غيرها ؟ أقول ان تحري هذه العوامل الموضوعية لتوقف الحضارة العربية او انقطاعها ضروري لفهم تخلفنا الفكري الحاضر ، الذي هو وليد هذا التوقف او الانقطاع ، وضروري كذلك لمعالجة التخلف المذكور ومحاولة الخروج منه الى الحيوية الفكرية والتقدم الحضاري .

٥ ـ وما دمنا في مجال الكلام عن هذا الانقطاع ، يجدر بنا ان نثير تساؤلا آخر . أصحيح ، كما قال الدكتور زكريا (ص ١٣ ، س ١ ـ ٢) ، « ان سمة الانقطاع الحضاري هي الصفة المميزة للتراث الفكري والعلمي في بلادنا العربية » . اني اعتبر هذا القول صحيحا اذا كان المعني به ظاهرة بارزة من ظواهر تراثنا ، وهي ظاهرة لا نستطيع انكارها . اما اذا كان المقصود به ان هذا الانقطاع هو الصفة المميزة للتراث العربي دون غيره من التراثات ، فاني لا أستطيع قبوله. ولعل ما يثير الشك في نفسي هو قوله في مفتتح بحثه (ص ١ ، س ٨ من ادنى) عن الموقف العقلي العربي الحاضر : « ومن ثم فان تحليل عوامل التخلف الفكري العربي ينبغي أن يرتكز اساسا على بحث تلك الصلة الفريدة بين الماضي والحاضر في العقل العربي ، وهي صلة أزعم انه لا يوجد لها نظير في الثقافات الاخرى » ، و (ص ٢ ، س ٢) : « ان السمة التي تنفرد بها العلاقة بين الماضي والحاضر ، في الثقافة العربية ، هي ان الماضي مائل دائما امام الحاضر ، لا بوصفه مندمجا في هذا الحاضر ومتداخلا فيه ، بل بوصفه قوة مستقلة عنه ، منافسة له ... ولو شئت ان الخص هذه السمة في كلمة واحدة ، لقلت ان نظرتنا الى الماضي « لا تاريخية » .

اني ، من جهتي ، أزعم ان لا الانقطاع الحضاري كظاهرة موضوعية للتراث العربي هو ظاهرة مقصورة على التراث العربي او مميزة له عن التراثات الاخرى ، ولا الموقف الذاتي العربي المعاصر من هذا التراث هو سمة تنفرد بها ثقافتنا العربية الحاضرة وليس لها نظير في الثقافات الاخرى . ان الانقطاع قد حدث في كل حضارة انسانية سابقة زهت ثم انحطت وتفسخت ، ولست ارى ان حضارتنا العربية هي فريدة في هذا المجال . ويكفيني هنا ان احيل القارىء الى الكتاب الجليل للمؤرخ الشهير ارنولد توينبي « دراسة في التاريخ » ، والذي يحلل سياق نيف وعشرين من الحضارات الكبرى التي قامت في التاريخ ويظهر انها كلها ـ ما عدا الحضارة الغربية الحديثة ـ قد توقفت وركدت بعد نموها وازدهارها وتضعضعت وانحلت بسبب هذا التوقف والركود . حتى الحضارة الغربية الحديثة فان ثمة مظاهر خطيرة عديدة توحي بانها هي ايضا قد دخلت مرحلة التضعضع والانحلال . فهل يصح اذن ان نقول ان « الانقطاع الحضاري » هو صفة مميزة للحضارة العربية اذا كان المقصود انه يميزها عن سواها من الحضارات ؟ الم يكن هذا شأن الحضارة الهندية والحضارة الصينية ، بل شأن الحضارة الغربية ذاتها التي توقفت وانقطع سيالها ـ قليلا او كثيرا على اختلاف بين المؤرخين والمحللين ـ طيلة عدة قرون في العصر الوسيط ؟

وكذلك فيما يتعلق بالموقف الانقطاعي الذاتي في العقل العربي بين الماضي والحاضر ، أصحيح ان هذا الموقف هو ظاهرة « لا يوجد لها نظير في الثقافات الاخرى » و « السمة التي تنفرد بها العلاقة بين الماضي والحاضر في البلاد العربية »؟ اني اميل الى الاعتقاد ان هذه الظاهرة تسم ادوار التخلف والانحطاط في اية حضارة كان لها ماض زاه وانجاز سابق رائع . فان من سمات تخلفها انها تتلفت الى الماضي ولا تتطلع الى المستقبل ، فتتخدر بشعور الاعتزاز بالتراث ولا تحس بضرورة « تجاوزه » ، ويغدو هذا التراث عبئا عليها شالا ومهمدا ، بدلا من ان يكون باعثا ومحييا كما هي الحال في ادوار الانبعاث والنمو . يصبح الماضي محط النظر ومرتكز الطموح فينفصل عن واقع الحاضر ، بدلا من ان يكون خاضعا للنقد ومنطلقا لانجازات جديدة « تتجاوزه » وتسمو عليه ، او كما يقول الدكتور زكريا (ص ١١ ، س ٨ من ادنى) : « يصبح الماضي هو القادر على تخليصنا من مشاكل الحاضر ، ويظل الفكر « متخلفا » ، راجعا الى الوراء وناظرا الى الخلف وتصبح المواجهة المباشرة للحاضر أمرا مستحيل التحقيق في ظل هذه النظرة التراجعية اللاتاريخية » . اني أزعم ان هذه النظرة التراجعية هي سمة لادوار التخلف والتضعضع في الحضارات والثقافات بوجه عام لا سمة تنفرد بها الثقافة العربية .

٦ ـ وثمة ملاحظة اخرى على ظاهرة الانقطاع هذه . ما هو الذي انقطع بالفعل ؟ ان جوابنا على هذا يتوقف على مفهومنا للتراث. ويخيل الي ان الدكتور زكريا يقصر هذا المفهوم على « الفترة اللامعة » التي « وصل فيها (العلم والفكر العربي) الى اقصى درجات التقدم المتاحة في القرون الوسطى » (ص ١٣ ، س ١٣ و ٩ ـ ١٠) والتي تلتها فترة انتشار الظلام وتوقف التقدم الممتدة الى عصر قريب « قد يكون هو القرن العشرون او التاسع عشر على أحسن الفروض » (ص ١٣ ، س ١٥ ـ ١٦) . ومن هنا قوله « ان ماضينا وحاضرنا لا يكونان خطا متصلا وان هذا الانقطاع هو الذي ادى الى تشويه نظرتنا الى الماضي والحاضر على السواء » (ص ١٣ ، س ٧ ـ ٨) . والواقع هو ان تاريخنا ، كتواريخ جميع الشعوب ، يكون خطا متصلا، وان الذي انقطع ليس التاريخ او التراث بكامله ، وانما الذي انقطع هو الابداع الحضاري ، والذي توقف هو التقدم الحضاري . ولذلك يجب الا نقصر « التراث » على الانتاج الايجابي والأشعاع المضيء في فترة معينة فحسب ، بل ان نمده على جميع ما ورثنا من الماضي من عهوده اللامعة والمظلمة معا ، عهود الابداع والتقدم وعهود الركود والتأخر . والواقع هو ان الفرد العربي العادي اليوم يتحسس باحاسيس وينطلق من مفاهيم هي مزيج مما تلقاه من تراثه كله ، وخصوصا من تراثه القريب الذي ساد فيه التخلف وتغلب الجهل على العلم و « الغيبيات والافكار الاسطورية » على الجهد العقلي . ولذا ، فلا بد من غربلة هذا التراث ، ومن فصل ايجابياته عن سلبياته ، لانه لا يزال فاعلا فينا ، شئنا ام ابينا ، فعلينا ان نتحرى آثاره المختلفة في حياتنا لنعزز ما يصلح لحاضرنا ولمستقبلنا ولنتخلص مما لا يصلح بل يعيق ويسيء .

٧ ـ اني اوافق الدكتور زكريا في « ان الاحياء الحقيقي للتراث انما يكون عن طريق تجاوزه واتخاذه سلما لمزيد من الصعود . اما احياء الاسترجاع فهو في حقيقته قضاء على التراث » (ص ١٦ ،

س ١١ ـ ١٣) . ولكن كيف يمكننا ان نتجاوز هذا التراث ونتخذه سلما لمزيد من الصعود اذا لم نعرفه على حقيقته ؟ واذا لم ننتقده ونقربله ؟ وليس يجدينا كما يقول : « الامتناع عن توجيه الذم أو المدح الى التراث ، الا اذا كان ذلك داخل الاطار التاريخي الخاص به » (ص ٥ ، س ٤ من أدنى) . طبعا لا يحق لنا ان نطبق على الماضي مقاييس الحاضر ، ولكن يمكننا على الاقل ان نتساءل : لماذا استطاع التراث ان يزهو ضمن الاطار التاريخي الخاص به ، ولماذا عجز عن ان « يتجاوز » هذا الاطار الى اطار آخر ؟ ومن مجابهتنا لهذا التساؤل تتضح لنا امكانات تجاوزه في الوقت الحاضر ، وهكذا يكون الاحياء الحقيقي نابعا من نقد التراث . اما الاسترجاع فحسب ، الذي يضيق بالنقد ويبغي اعادة الماضي كما هو ، فاني أرى مع الدكتور زكريا انه في حقيقته قضاء على التراث ، بل أذهب الى القول ـ ولا أشك في ان الدكتور زكريا يوافقني عليه ـ انه قضاء لا على التراث فحسب ، بل على الحاضر والمستقبل ايضا .

٨ ـ ولكن اذا كان الاسترجاع المطلق أمر غير مرغوب فيه ، بل ليس ممكنا حتى لو اردناه ، فان هذا يجب ألا يجرنا الى الطرف الآخر فنقول : « ان من الممكن ان تقوم نهضة علمية وفكرية رفيعة المستوى في مراحلها الاولى ، على أساس الرفض الحاسم للتراث ، وذلك حين يكون هناك انقطاع في التراث يمنع من استمراره في خط متصل حتى الحاضر . وعندئذ لا بد ان ترفع النهضة شعار « البدء من جديد » كعلامة على تحدي التراث » (ص ١٩ ، س ٣ ـ ٦) . قد ترفع النهضة هذا الشعار ولكن هل يمكنها ان تطبقه فعلا ؟ اني أقر انه يجب ان نبدأ من واقع الحاضر ، بل من تطلعات المستقبل . ولكن هل يمكننا ان نقطع صلتنا بالماضي قطعا باتا حتى في المراحل الاولى من نهضتنا ؟ ألا يكون هذا القطع موقفا « لا تاريخيا » مقابلا للموقف « اللاتاريخي » الآخر الذي تحدث عنه الدكتور زكريا مطولا وحذرنا من مغباته . لا ضير علينا اذا كنا نعني ب « تحدي التراث » مجابهته ونقده والتصميم على تجاوزه ، اما اذا كنا نعني « الرفض الحاسم للتراث » ، فاني أزعم ان هذا الرفض الحاسم هو ، كالاسترجاع المطلق ، أمر غير مرغوب فيه ، وغير ممكن حتى لو أردناه ، لان الحاضر هو وليد الماضي ونتاج التراث . نستطيع ـ بل يجب علينا ـ ان نتجاوز الماضي على ان يتضمن هذا التجاوز كل ما في الماضي من خير وابداع . ولست أظن انه يكفينا في عملية التجاوز هذه ان نتوجه الى الحضارة الاوروبية وحدها على أساس « ان الحضارة الاوروبية هي التي حفظت التراث العربي وصانته بالطريقة الصحيحة ، أعني انها صانته عن طريق تجاوزه وتصحيحه وتفنيده ، وضمنت له من خلال موته حياة مستمرة » (ص ١٧ ، س ٢ ـ ٤) . قد تكون الحضارة الاوروبية قد حفظت التراث العربي العلمي والفلسفي وتجاوزته ، ولكن ثمة جوانب اخرى من التراث العربي ، وأهمها التراث الادبي ، لم تعرفه الحضارة الاوروبية ولم تتجاوزه بالتصحيح والتفنيد ولم تضمن له من خلال موته فيها حياة مستمرة ، كما ان هناك تراثا عربيا فنيا ، في العمارة والصنع والزخرفة والموسيقى ، قد عرفته الحضارة الاوروبية ، ولكن ظلت له شخصيته الخاصة ولم يذب او يتجاوز في تلك الحضارة . ان استكشاف العناصر الابداعية في هذه الجوانب من تراثنا ، واستخلاص حوافز الابداع في ما أخذه الغرب وتمثله ثم تجاوزه من علم وفلسفة ، جديران بأن يعززا نهضتنا ، وان يحفظا بالوقت ذاته أصالتنا . وبكلمة اخرى : ان تصميمنا على التجرد من كل ما في تراثنا من رواسب التأخر والتخلف يجب ان يتماشى مع حرصنا على استعادة كل ما احتواه من حوافز الانطلاق والتقدم .

٩ ـ ولنطبق هذا على « درس النهضة الاوروبية » الذي حلله الدكتور زكريا (ص ١٧ ـ ١٩) . ومما ذكره في تحليله هذا : « واول ما نستخلصه من هذه الدراسة هو ان الاوربيين لم يخجلوا من اعلان رفضهم القاطع لتراث كامل ينتمي الى صميم ثقافتهم » (ص ١٧ ، س ٥ من ادنى) . ويفهم من الجملة التالية ان الدكتور زكريا يعني بهذا التراث الكامل « تراث الفكر الارسطي » (س ٣ من ادنى) . ويرى بعض الباحثين ان الاوروبيين لم يرفضوا التراث الارسطي بكامله . لعلهم رفضوا المنطق وما وراء الطبيعة والعلوم الطبيعية ، ولكنهم ظلوا يتأثرون بكتب أرسطو الاخلاقية والسياسية . ثم لما جاءتهم كتب افلاطون وأرسطو بأصولها اليونانية من اهل القسطنطينية اللاجئين الى اوربا اقبلوا على دراستها بنهم لانهم ، بدافع اعجابهم بالاصول اليونانية ، كانوا حريصين على الاطلاع عليها مباشرة لا عن طريق ترجماتها العربية او العبرية فحسب . ولكن لو فرضنا انهم ثاروا على الفكر الارسطي ورفضوه فان هذا الفكر ، على أهميته وسيادته طيلة القرون الوسطى ، لم يكن يمثل التراث الفلسفي اليوناني بكامله . اذ يجب ألا ننسى ان الفكر اليوناني من ايام طاليس بدأ يتجه نحو الطبيعة ويتساءل عن ظواهرها وعللها ويتحراها بالاساليب العقلية ، ثم جاء سقراط وافلاطون وأرسطو فأضافوا الى الاهتمام بالطبيعة الاهتمام بالانسان بالأساليب العقلية ايضا . وهكذا كان للعقلانية الاوروبية في عصر النهضة وما بعدها جذورها العميقة في الفكر اليوناني ، وكان رجال النهضة ورجال عصر التنوير واعين لهذه الجذور ، ولا أظننا نستطيع القول انهم « في مجال التفكير العلمي والفلسفي رفضوه (التراث اليوناني والروماني) رفضا قاطعا » (ص ١٧ ، س ١٣) . ومع ان الدكتور زكريا يؤكد ان الاوروبيين « عادوا الى التراث اليوناني والروماني في مجال الفنون والآداب » (ص ١٧ ، س ١١ ـ ١٢) ، فان هذا التأكيد يكاد يأتي عرضا ، لان النهضة الاوروبية تمثل عنده في جوهرها موقف الرفض القاطع للقدماء « ولم يكن في موقف الرفض القاطع هذا ما يعيبهم، بل قد اصبح هذا الموقف هو أساس مجدهم وهو الذي وضعهم على قمة الفكر والعلم في القرون الوسطى » (ص ١٨ ، س ٦ ـ ٨) . وفي رأينا ان حركة النهضة لم تكن تمثل رفضا قاطعا . انها كانت ، من جهة ، رفضا للعقلية اللاهوتية الكلامية الوسيطية التي جنت منطق ارسطو وفلسفته لغاياتها ، ولكنها كانت ايضا ، من جهة اخرى ، بعثا للتراث اليوناني في عقلانيته وللتراث اليوناني اللاتيني في « انسانيتهما » ، وفي روائع أصولهما الادبية والفنية . ان « النهضة » كانت حركة بنزعات التجدد والتأصل معا . ومن هنا كانت عظمتها وكان اثرها البارز في الحضارة الاوروبية .

١٠ ـ وبعد ، فقد أطلنا الحديث عن التراث وكدنا نخرج عن الموضوع الاصلي وهو : « التخلف الفكري وأبعاده الحضارية » . فلا بد اذن من ان نتحرى العوامل المختلفة لهذا التخلف ، وان نتساءل عن أبعاده الحضارية . ولست أدري بالضبط ما هو المقصود بهذه « الابعاد » . ان هذا التعبير يحتاج الى مزيد من التدقيق والتوضيح. فهل المقصود هو اثار تخلفنا الفكري في اوضاعنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي سلوكنا الخاص والعام ، أم المقصود هو دلالة تخلفنا الفكري على وضعنا الحضاري العام . ومهما يكن من امر ، فان هذا الجانب من الموضوع يحتاج الى دراسة خاصة والى معالجة يصعب ان يستوعبها نطاق البحث الذي نحن بصدده .

ويسرني في ختام هذا « التعليق » ان أعود فأشيد بما في هذا البحث من موضوعية وجرأة وتجددية ، ومن تأكيد سديد على « التاريخية » الصحيحة ، وعلى ضرورة تجاوز الماضي ، وعلى أولوية الحاضر ، ومن تسلسل منطقي ووضوح فكري . كما أعود الى القول ان ملاحظاتي ليست سوى تتمة لهذا البحث ارجو ان يجد فيها الدكتور زكريا والمشتركون في الندوة ما هو حري بالاعتبار والتدبر والنقاش .